الموتى لا يبكون

مجموعة قصصية

عبدالعزيز الفخراني

اسـم الكتـاب: الموتى لا يبكون
اسـم المـؤلـف: عبدالعزيز الفخراني
الترقيم الـدولي: 978-2-12-345628-5

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

الأرنب يُدلي بشهادته

أخرجني الأرنب الأبيض من عزلتي. ليس الأرنب الأرنب, ولكنه "الخراج" الذي لحق بالأرنب, ولا يريد أن يبرأ. كان الوقت عصرا عندما خطوت أولى خطواتي على الطريق, أضم الأرنب المذعور إلى صدري.. خفقان قلبه المتلاحق, ونبشه اللحوح في صدري؛ نبأني بكم الهلع الذي يعتريه.. مسدت فروه الناعم؛ فهجع واستكان..

المدينة تحولت لثكنة عسكرية, العسس والجنود يتسكعون في كل مكان؛ ضحكاتهم صاخبة, وألفاظهم نابية.. نباح كلابهم.. رائحة تبغهم, وبارودهم.. بنادق.. دبابات.. وطائرات تئز في السماء؛ كل شيء ملتبس بجو الحرب, رغم أنه لا حرب..

وفيما ألتمس كاللصوص أكثر الطرق أمانا, كان قلبي أنا الآخر يدق.. ومع كل ظهور لأحد العسس أو الجنود, تنتقل رجفة الاضطراب التي تجتاحني للأرنب, الذي بدوره يحشر رأسه في صدري أكثر..

الجدران محملة بملصق وحيد, وكأنها بالفعل دعوة للحرب..

أنا لم أعد أصلح للحرب, أنا جندي روماني دجنته الهزائم, يهلع من منظر السيف, ناهيك عن مشهد الدماء.. جندي روماني صفر الذاكرة, سقطت تفاصيل هزائمه في بئر النسيان, وبقي الطعم مريرا مزعجا..

كما أن هذا الأرنب لم يعد يصلح لتلقيح الإناث, ورغما عن ذلك أحتفظ به..

الملصق يحمل جملة وحيدة:

"اختر الزعيم من أجل الوطن.."

وبأسفل الجملة صورتان تقتسمان مساحة الملصق بالتساوي؛ الصورة الأولى للزعيم يقود سيارة نقل كبيرة, مما تستخدم في نقل الجياد, يرمق مشاهدي الصورة بوعد ما أو توعد ما, أما الحصان فليس داخل الصندوق الكبير كما المفترض, ولكنه

مكبل بالحبال على جانب السيارة من الخارج, مصلوبا عليها.. وبالبعيد, في أقصى الصورة, تظهر مراعي وعشب وجنات غناء..

لم يمهلني الأرنب الأبيض الذي وكزه خوف ما لأفكر في رمزية الصورة, وتلك الرسالة التي بالضرورة موجهة لأمثالي, ولا أن أتمعن في الصورة الثانية التي ربما هي مفتاح لغز الصورة الأولى.. ربما النظرة الحادة النافذة التي تطفح من عين الزعيم لها دور.. ربما ذكرته بنظرة الأرنب الأسود الشرسة المتوعدة..

الأرنب الأسود الشرس يستأثر بكل الإناث. ليس الإناث فقط, ولكن كل شيء؛ الطعام والشراب والمسكن وكل شيء, وهذا المسكين لا ينالـه إلا الفتات, إن تبقى هنالك فتات..

هذا الأرنب الأبيض هو الآخر جندي روماني دجنته الهزائم, لم يعد يصلح لخوض معركة..

أسكن حجرة بسطح الدور العاشر, في العمارة المتهالكة المنزوية. أحرقت كل الكتب وقررت تربية الأرانب.. الأرانب أكثر سلاما من الكتب, هي لن تحرض على الفهم, ولن تحرك مياه الآدمية الراكدة, ولن تتواطأ مع عسس منتصف الليل للزيارة الغير مرغوب فيها..

مع الوقت أعلم أنني صرت أرنبا يقف على قدمين..

"الصفات تنتقل بين الكائنات بالمعايشة."

عبارة تهكمية لاذعة, قرأتها في آخر كتاب أحرقته..

قهقهة ساخرة لجندي ظهر فجأة نهتني, وانتزعتني من شرودي.. مكث يرمق بغرابة الأرنب المذعور على صدري.. الذعر الذي طفح علي أنا الآخر جعله يتمادى:

"أرنبان مذعوران"

لم أعر جملته التفاتا.. أجدت التجاهل منذ زمن..

وولجت إلى زقاق ضيق بدا لي كطوق نجاة.. حتى جدران الأزقة لم تسلم من الملصق.. ورغم غبشة الظلمة كانت الصورة واضحة المعالم..

الصورة الثانية لنفس سيارة نقل الجياد, ولكنها محطمة مهشمة لا شيء فيها سليم, والحصان مقتول بالجوار, على أرض قاسية جدباء, لا زرع فيها ولا ماء, أما الزعيم فلا يبدو له آثر..

لو أنني كنت بجوار رسام الصورة لحظة التصميم, لهمست إليه أن الأرنب أدق وأصلح رمزا للمواطن الصالح, فهو مثله تماما؛ لا يركل, ولا يعض, ولحظة الخطر يهرع فزعا إلى الجحور..

قرأ الأرنب ما يدور بخلدي, فقد اشرئب بعينيه إلي مؤنبا.. تنهت أن في الأمر إهانة لم أكن لأقصدها, فقصدي أنه ثمة تقارب صفات بين الكائنين؛ جُبلت الأرانب عليها بلا تدخل أو ذنب, واكتسبنها نحن بالمعايشة, تماما كما أخبرني آخر كتاب أحرقته..

لثمته معتذرا, فاطمئن وهجع..

صار المسكين منزويا حزينا, نقص وزنه وتدهورت صحته. ومن نحو أسبوعين راودته نفسه أن يمتطي إحدى الإناث, فلمحه الذكر الأسود الشرير وعقره في معدته بأسنانه الحادة, تحولت العضة إلى "خراج" باءت معه كل محاولاتي لعلاجه بالفشل..

وصرت أسير على غير هدى, فالصيدليات البيطرية التي أعلمها مغلقة الأبواب, وكما علمت من الملصق فإن اليوم هو يوم الاستفتاء على الزعيم؛ فإما المراعي والعشب, وإما السيارة المقلوبة والحصان المسكين المضرج في الدماء..

يا لحظي التعس, من أغراني بالخروج في هذا اليوم بالذات.. إنه العجوز الذي يربي الأرانب على السطح المقابل.. قال:

"لابد أن يعطيه الطبيب البيطري حقنة مضاد حيوي طويل المفعول.. لأن "الخراج" تمدد واستفحل في جسد المسكين.."

العجوز هو الآخر أحرق الكتب, واعتكف الأرانب.. الأمور المشتركة بيننا لا حصر لها, بيد أنني يجب أن أتوخى الحذر من نصائحه مستقبلا..

"وما كدت أعرف نواياهم.. حتى أخرجت المطواة قرن الغزال, وشرعت فيهم تشريحا.. كانوا ثلاثة.. وكنت واحدا.. ولكن أمثالهم خراف.."

اقتلعني من شرودي الحديث الدموي, وانقبضت أساريري..

وجدت نفسي أسأل دونما تفكير:

"ولم؟!.."

وعضضت على شفتي ندما عندما التفت إلي.. من ملامحه ووجهه المشوه بالندوب؛ هو بلطجي ممن عاشوا تحت الأرض حينا, ثم ماجت بهم المدينة وظهروا للشمس عيانا بيانا.. أمثاله يحبون الزعيم, ربما أكثر من العسس والجنود..

أجابني وعيناه تتقد بشرر, فيما يفرد الملصق ذي الصورتين:

"كانوا ضد الزعيم.."

ازدردت غصة علقت بحلقي, وأنا أومئ برأسي متفهما, فيما تكور الأرنب بصدري أكثر.. وحاولت المضي, ولكنه آبى.. أمسك بسترتي.. وهمس بصوت كالفحيح, ويده تعبث في جيب سترته, أظنها تستعد بالمطواة:

"وأنت؟"

أشرت من فوري إلى الحصان المصلوب على السيارة المتجهة إلى المراعي.. فطفرت على ندوبه ابتسامة شريرة, وقال:

"حسنا.. تقدم أمامي.."

وعلى مدخل اللجنة, وجدت نساءً سمينات خانعات, ورجالا ممصوصين, مُعدمي الهيئة, ذوي نظرات تائهة..

قلت في نفسي:

"الرجال قهرهم الزعيم, وأن شأنه شأن الأرنب الأسود؛ هو الذكر الأوحد في المدينة.. والنساء رضخن لهذه الحقيقة, وسمن عليها.."

وبحثت خلف كل واحد منهم عن مطواة تهدده, فلم أجد سواي.. همست لنفسي, وقد داعبني طيف من تباهي:

"أنا أحسن منكم حالا.. فأنا مضطر.. أما أنتم فقد أتيتم لاختيار العشب بمحض إرادتكم.."

أمام ورقة الاستفتاء رمقني مراقب اللجنة, مستشفا نواياي, واجهته نظرات الأرنب المذعور بداخلي, وهذا المحمول على صدري.. وضع القلم على العشب وفح:

"اختر.."

تجاهلت فحيحه, وسألت:

"لم الحصان مصلوبا على جانب السيارة أثناء نقله للمراعي, وليس مُكرما داخل الصندوق الكبير؟!.."

حدجني بنظرة ذكرتني بنظرة صاحب المطواة, وزعق:

"يا أيها الأرنب.. ما يهمك هو أرض العشب.. وليس أكثر.."

بلا مجهود يُذكر, أقنعت نفسي بالإجابة والصمت.. وبيد مرتعشة أمسكت القلم.. وفي اللحظة الفاصلة وكزني الأرنب اللعين؛ فانفلت القلم إلى السيارة المهشمة والحصان المقتول.. في الحقيقة لا أعلم, أي الأرنبين السبب, ذاك القابع بداخلي أم الأرنب ذو الخراج, كل ما أعلمه هو أن المدينة بأسرها انطلقت تطاردني..

بائع الأحلام

- أحلام للبيع..
- الحلم بنصف الثمن..
- لن أصنع المزيد..
- فقط ما بقي في الجعبة..

يخب الأرض في جلباب مهلهل منذ سنين, لا يعرف لها عدد: كث اللحية, أشعث الشعر, أشيبهما, وزاد على ذلك رعشة قميئة في يديه لا تنفك تطارده..

وكان فيما مضى يصنع الأحلام بالطلب لمن يريد؛ أحلاما بالتفصيل, ولكنه الآن عجوزا لا يقدر, فقط يُصلح الأحلام التي أصابها فتوق واهتراء, أو يشعل ضوءً لمن ضلت الطريق, أو أملا غير الذي خبا, أو يوقظ تلك الساقطة في غيبوبة الواقع, في أولئك الذين دجنتهم الأيام..

ولا يردد في سعيه الدؤوب؛ إلا جملة وحيدة:

"أحلام للبيع.. الحلم بنصف الثمن.. لن أصنع المزيد.. فقط ما بقي في الجعبة"

عيناه النافذتان الضيقتان في بحثهما عن الراغبين في الشراء أصابهما الكلل, بات أحيانا يقابلهم ولا يراهم, والأحلام في جعبته ثقلت على كتفه وأوجعته, لم يبع شيئا منذ أيام وشهور, لم يعد يتذكر, ربما منذ سنين, ولم يصلح لأحد حلما منذ زمن لا يتذكره هو الآخر. في المرة الأخيرة رفض الرجل البائس عطيته. قال مقتضبا:

"أنتظر الموت, وما تنفع الأحلام مع من ينتظرون الموت؟!!.. أيام تمر!!"

توجع من إجابته, تمتم:

"لم اليأس؟!.."

ورد الحلم مكسور الخاطر إلى جعبته, وأشفق في نفسه أن يصبح يوما بلا قيمة هو الآخر, أن يأتي يوم تكسد فيه بضاعته, وربما هي في الأصل كاسدة, وهو فقط ساقط في غيبوبة, وكذبة كبيرة, وأيام تمر..

يهز رأسه في عناد هو من طبع رافقه منذ الأبد:

"بالتأكيد ثمة هناك من زال يرغب في الشراء.. من زال يريد حلما يعيش من أجله.. وما الغد بلا حلم؟!.. وما الحياة بلا حُلم؟!.. جنة الله في ذاتها حُلم.."

أخبره أناس, وقد ظنوا به العته, عن امرأة تعيش بأعلى الجبل؛ منكوشة الرأس, زائغة العينين, يخافها الناس, يقولون أنها لا تخلو من جنون, تشكو من حلم غادرها على غفلة, وتركها جوفاء تقرعها السنون..

ولما توارى عن العيون, يخب الأرض متحمسا, في طريقه إلى الجبل, تهامسوا:

"مجنون ذهب يقابل مجنونة.."

صعد الجبل بجعبته العتيقة على ظهره الأحدب.. أصابه النصب, وأرهقته المسالك والدروب الملتوية, وما كادت تتحد عيناه مع عينيها الزائغتين, حتى شعر بخيبة أمل تملأ قلبه الكسير من حاله. تمتم في نفسه:

"المرأة مجنونة من أقل ملاحظة.."

قالت متوجسة فيما تدور من حوله:

"من تريد؟.."

تمتم بينما يرفع الجعبة على كتفه, يهم بالرجوع:

"لا شيء.."

وفيما يغادرها كسيف البال..

"انتظر أرجوك.. أشتم رائحة بجعبتك.. ليست غريبة علي.. تذكرني بعزيز.. أنت ذاتك تذكرني به.."

فرد جعبته, فتناثرت الأحلام, تتقافز كأطفال صغيرة في يوم عيد, تصيء كفئران وليدة ترى النور للمرة الأولى..

دق قلب المرأة فيما تقلب فيهم..

"هو يشبه هذا.. وفيه بعضا من هذا.. وربما هذا.."

بانت الخيبة في عينيها, وهزت رأسها المنكوش بشعرها الأشعث, وأردفت بلهجة مضطرمة بمشاعر مبهمة, فيما تميل باتجاهه, تفتش في ملامحه بطريقة غريبة:

"ولكني أريده هو.. هو ولا شيء سواه"

مد يده إليها بأجمل الأحلام, متغافلا عن سلوكها الذي بدأ يقلقه..

"هذا أروع ما عندي, وسأتقاضى فيه ثمن زهيد.."

وبعد تفكير لوهلة, وحكه صغيرة في الرأس؛ أردف:

"حسنا خذيه بلا ثمن.. هو هدية من تاجر كسدت بضاعته, وقد تتلف على أي حال.."

قالت مزمجرة:

"قلت لك أريده هو هو.. ولا شيء سواه.. عيناه الجميلتان الحالمتان.. وجهه الندي الصبوح.. رقته.. تمرده.."

تفكر قليلا:

"حسنا.. أنت تريدين شيئا مخصوصا.. بالمقاس.. حسنا, الأمر مرهق فقد كبرت, ويداي أضحتا ترتعشان, ونظري كل, وعزيمتي وهنت, وكانت أقصى أماني أن أبيع ما

صنعته منذ سنين لم أعد أدري لها عدد, ولكنني من أجلك سأصنعه لك.. وسيكون هدية.."

تهلل وجهها وبان البشر عليه.. أردف متسائلا:

"أله صوره؟.."

"صورته في قلبي.. في نفس الفراغ الذي غادره على غفلة مني.."

حك رأسه..

"حسنا صفيه لي.."

لمعت عيناها ببريق أخاذ, لا يتناسب مع شعرها المنكوش, ووجهها المتترب, وحالتها المزرية, وعكفت تصفه في عشق بأدق التفاصيل..

قال متعجبا من حالها:

"ألهذه الدرجة تحبينه؟."

رنت إليه.. فتشت في ملامحه.. لا يدري لم رآها جميلة.. همست:

"هو حياتي!!."

انتفض قلبه؛ فثمة من زال يرغب ببضاعته, هي مجنونة, ولكنها تحلم, أو ربما جنت لأنها فقدت الحلم..

ضبط عينيه تسارق النظر لوجهها الجميل المستتر خلف القذارة.. ثمة نظرة جديدة يعلمها جيدا في نفسه..

تمتم في سريرته, زاجرا قلبه المضطرم:

"ويحك أيها الأحمق, ألا تمل, ألا يكفي ما نالك من خطوب؟!.. هي امرأة مجنونة, وسأصنع لها حلما بالمجان, وأغادرها إلى غير رجعة.."

ومن جراب مخصوص, أخرج بعضا من نتف السحاب, وشيئا من عبير الورد, وحزمة من ضوء القمر, وعكف بيدين لم تفقدا براعتهما بعد, يصنع حلمها في أناة, حتى انفلت من بين أصابعه يتقافز حولها كجرو صغير, كأنه يعرفها..

احتضنته بلهفة طفلة وجدت لعبتها الأثيرة, ثم وضعته في أخص مكان بقلبها وأوصدت عليه, وقذفت بالمفتاح من أعلى الجبل, وقالت:

"هذا حلمي.. لن أدعه يغادرني قط.."

همست فيما ترنو إليه بذات النظرة الغريبة:

"ليته يتحقق.."

تمتم في نفسه:

"حقا امرأة مجنونة.."

أمسك عصا جديدة, شذبها من غصن شجرة, وشرع في الهبوط, وعندما وصل إلى سفح الجبل, راوده تساؤل لم يجد له إجابة:

"لم بائع الأحلام عاش طوال حياته بلا حلم؟!.. لم عاش يوزع الأحلام ونسي نفسه؟!."

أعجبته فكرة أن يصنع حلما ويوصد عليه, مثلما فعلت المرأة..

أخرج أدواته وانهمك في العمل حتى انفلت كجرو صغير, هو نسخه من حلمها, وضعه في قلبه, وأوصد عليه, وقذف بالمفتاح بكل قوته..

صعد الجبل..

ما زالت منكوشة الشعر, وعيناها لا تخلو من جنون.. كاد يقول: "امرأة مجنونة"..

ولكنه عوضا عن ذلك, قال مداعبا بروح جديدة:

"ما رأيك أن أصنع لك حلما جديدا.. مخصوص.. بالمقاس.."

تبسمت..

"والمقابل؟."

نكش شعره..

"أمكث معك بالجبل.."

انفرطت مسبحة العمر, وتسرسبت حبات السنين حبة حبة, تقعقع على أرضية حياتها الصماء..

وبالمقلتين يلتمع دمع حبيس, ولكنها تسيطر..

هكذا هي, المصاب كبير والخيبة بلا مثيل, ولكنها تسيطر..

وها هي تخطو على ما تبقى من طريق الأيام, يحدوها القيل والقال, وأمور ثقلت على كاهلها وأرهقتها, ولكنها مذمومة الشفتين, تكتم ولا تبوح.. والعينين المشعتين بريقا فيما مضى ثابتتين جامدتين الآن, لم يعد شيء قادر على جعلهما ترتعشان تلك الرعشة العفوية الساحرة المفعمة بالحياة..

وتعيش.. تتناول الحياة كما حبات علقم.. وتتناولها الأيام كما وحش قميء بلا ذرة شفقة..

ولم يعد شيء يهم..

في بيتها المنطوي على وحدتها منذ عقود ثلاث, تعتكف صومعتها التي باتت تلتزمها بشكل مستديم, بعيدا عن صخب زوج حطم قلبها, وضجيج حياة لم تعد تطيقها..

حجرة غريبة مكتظة بالكتب, تمكث فيها ولا تفارقها طوال يوم محتشد بكتائب متراصة من جُند الثواني, وقادة الدقائق, وألوية الساعات.. فيها اعتادت متابعة سير المعركة الرتيب, حيث الجنود والقادة والألوية يتساقطون تباعا في النزال الخاسر, ذو المصير المحتوم بالفناء..

وربما نامت ليلها على الأريكة المتاخمة للنافذة الغربية, ترنو إلى القمر بنظرة منطفئة ذابلة, فيما يحوم بين تلال السحب, وزخم النجوم, يتابع انضباط السماء..

وتلتف على نفسها.. قوقعة تلتمس السكينة.. تغمض عينيها, وتروح في سبات من مجهود القراءة..

تقرأ بلا انقطاع.. يرقة نهمة, تلتهم شرنقة أبدية الجدار, فلا هي تنطلق إلى الحرية, ولا هي يتملكها اليأس؛ فتكف..

وفي الحُلم يأتيها "الفارس", جميلا ممشوقا على حصانه البديع شاهق البياض..

يمد يدا فتية, ويهمس بصوت أسطوري, بتلك الجملة التي اقتلعتها يوما من أرضها, واعتصرتها في بوتقة سحره:

"عما تبحثين في الكتب؟!..عن السعادة؟!.."

يومها, وهي ابنة العشرين, خلعت نظارتها الطبية, ونَحت جانبا كتاب "البؤساء", وهمس متآمر يتلاعب بنفسها, يشجعها أن تقتفي آثر الفارس الجميل..

همست برهف من دق قلبها للمرة الأولى:

"أنت السعادة!!.."

تضحك اليوم بملء فيها.. تضحك حد البكاء.. حد الهستيريا الملتاعة..

وتهمس لنفسها:

"لو قرأت ما انزلقت.."

الآن تشيح عنه, سواء آتاها في الحُلم؛ فارسا جميلا على حصانه شاهق البياض, أو طرق صومعتها بعينيه المرهقتين من السهر والمجون؛ يستطلع حال ركام نصره المظفر..

الآن تتشبث بالكتاب كطوق نجاة, كتعويذه تحميها من شر مستطير, فيما تلمح طيف اعتذار يتماوج على محياه, وقد دب فيه الجفاف, وشيب كثيف لطخ رأسه وفوديه, وعينين فقدتا ذاك السحر..

تعلم أن لا شيء سيوقفه, رغم الآسف البادي المفتعل.. مهنة قنص القلوب في دمه, وحبائل الشيطان يتدارسها منه الشيطان, وضحاياه يتساقطن مثل جثث خلفتها حرب جاهلية..

في مصاب اكتشافها الأول, مادت الأرض بها, وسقطت تتلوى وتنتحب لشهور, تنعي حبيبا قد ذهب بلا رجعة, بيد أنها اعتادت مع التكرار.. اعتادت حد اللامبالاة..

فليفعل ما يحلو له, ولتفعل ما يحلو لها, لن تترك صومعتها حتى المغادرة..

بائع اللبن لن يجيء

من عادة أمي الاستيقاظ مبكرا, قبيل الفجر بنحو الساعة, تصلي ركعتين وتستمع لقرآن الإذاعة, حتى موعد الآذان.. أستيقظ أنا في الخامسة, لألحق بالصلاة, بالكاد قبيل الشروق..

حجرتها ما زالت تغط في سبات, هذا ليس من عادتها!!.. العمر الذي تجاوز الستين يثقل عليها أحيانا..

توجهت إلى الثلاجة, لأخرج اللبن, وأضعه على الموقد.. الزجاجة فارغة.. تذكرت؛ هذا البائع لم يجيء بالأمس؛ ما يمنعه أن يُحضر اللبن لأمي؟!.. أمي تحب شربه على الريق, تحبه دافئا..

بعدما تستيقظ من غفوتها الطارئة؛ ماذا سأُقدم لها؟!..

أتلمس الطريق إلى الحجرة, أرهف السمع, لا يطرق أذني شيء, أدقق النظر من فُرجة الباب, الغطاء متكوم عليها, ما زالت رهينة السبات, ربما يناجيها أبي, من مكانه هناك بالسماء.. أو أنها تعود القهقري.. القهقري لزمن سحيق, وقت أن كانت محض طفلة, وحضرها "خراط البنات".. وقتئذ؛ استرعت انتباه أبي, وقف مدهوشا من الطفلة التي تحولت بين ليلة وضحاها لغادة حسناء..

قالت لي: أبوكِ كان في العشرين, كان فتيا, وكان يبحث عن عروس..

وقالت: أبوكِ رشي المأذون؛ ليتغاضى عن صغر العروس, ويتمم الزيجة..

تقول أيضا أنني أشبهها كثيرا..

أمي جميلة.. لها صورة قديمة, تغرد بالجمال.. لو أنني أشبهها حقا, كما تقول, ما تخطيت الأربعين بلا رفيق.. أمي هي البديل عن الزوج الذي لم يحضر, والطفل الذي بالتبعية لن يجيء..

بائع اللبن هو أيضا لن يجيء.. بالأمس نجح أبي في مأربه.. أبي دفع برشوة جديدة, وأخذها معه إلى السماء..

دلف بجسده الممشوق إلى العمارة الفارهة.. الخطوات مستقيمة والنظر للأمام.. كل خلاياه في أوج يقظتها.. أصاخ السمع دونما توقف. آتاه شخير البواب منتظما.. ارتقى السلم, انطوى سريعا تحت قدميه, في لحظات كان بالطابق الأخير.. محترفا كان؛ فلم يستخدم أيا من المصعدين الرابضين بالأسفل منعا للجلبة, ولم تصدر عنه أدنى هفوة أثناء صعوده الأدوار العشر بقفزاته الرشيقة..

على أعتاب باب الشقة الشرقية؛ رمى بأذنيه مليا. جاست عيناه يتأكد أن لا أحد يتابعه؛ فيجد النوم طائرا خرافيا, يهيمن على المكان. شقق ثلاث عامرة, مجاورة للشقة الخالية من أصحابها. بالأمس توجهوا ليصطافوا بالساحل الشمالي.. لم يصمد الباب طويلا تحت مهارة يديه, فلان وانفرج على مصراعيه..

اخترقه الاحتراف كجرثومة منذ الصغر, لم يكن يدرك أن لهوه البريء هو تدريب مسبق لصيرورة حياته, وقت أن كان يسارق بواب عمارة مشابهة ليمارس لعبة الصعود والهبوط بالمصعد.. استهوته فكرة أنه لا مع أهل الأرض ولا مع أهل السماء.. بندول مبتهج, مفعم بالسعادة والأمل, يتطاوح في الهواء.. كان يذهب في ساعة كتلك, حيث اعتاد البواب النوبي أن يخرج لقضاء حوائج السكان, كان خادما متعدد الاستخدامات, أسود كالليل..

والعمارة رابضة على أعتاب حيه الشعبي الموغل في الفقر.. سيد يتقدم حفنة قذرة من العبيد, أشباه بيوت متناثرة على الأطراف, متكدسة في المنتصف.. ما كان يطبب نفسه قليلا, فيما يقف مشدوها أمامها, يقارن بين العقار الشامخ والأعشاش القذرة يطن عليها الذباب وتحوم من حولها الكلاب الضالة؛ أنه ثمة من هو أحسن منه حالا في هذا العالم؛ يقصد البواب.. طيف ابتسامة تزيح مرارة رابضة, وتلمع للخاطر.. يهز رأسه في محاولة للتخلص من أطياف الذكرى, يتجه صوب النافذة

الشرقية بالصالة الفسيحة.. من الخصاص الخشبي, يستطلع زاوية الرؤية, لمعة بالرضا تحتل لوهلة عينيه الشبيهتين بعيون السمك, كل شيء كما قدره تماما, الزاوية عبقرية, وقنص الصيد لا محالة فيه.. من حقيبته السوداء الصغيرة, يخرج أجزاء بندقية قنص.. شرع في تركيبها في سرعة ومهارة..

بعدما انتهى تلقفه الشفق الوليد..

مع الشفق والغسق كان المشهد ينطق بالنشاز. عقله الصغير خاطبه, أنه طالما اجتمع الجمال والقبح في مكان, فإن في الأمر مغزى.. أخبره أباه, الذي كان يشتغل فتوة للحي, أن صاحب العمارة كان صديقه في وقت ما, يقطن معهم في ذات الحي, ببيت أشد قذارة من بيتهم.. اتسعت عيناه البريئتان من هول ما سمع. دمدم بصوت مبهور خفيض, ما زال صداه يتردد في ذاكرته:

"حقا يا أبي.."

استطرد أبوه, فيما يشيح بوجهه:

"ذات يوم, هبطت عليه ثروة, لا يعلم مصدرها إلا الله.."

ومع أن عيني الأب كانتا متصلتين بحديث, ود لو يسمعه, بيد أنه صمت. ولما شب الغلام أدرك أنه ليس أشد من أن ينقلب حال أحد من جلدتك, وأنت قابع كما أنت تطارد الكلاب الضالة وتعف الذباب.. أن تتسمر خلفية رثة لثراء فاحش يتصدر المشهد.. تتغير الوجوه وتتبدل, وأنت كما أنت مجرد "كومبارس", فقير, بائس, لا يملك الكفاف..

ولم يشأ الرجل أن يذهب, ظل ماثلا أمامهم, يشرئب عليهم من برجه المهيب, يشهد ليل مساء على مدى حقارتهم وبؤسهم..

فسر له أحد عجائز الحي الأمر بطريقة أكثر فلسفة. كان دودة كتب, شديد البؤس, شديد الفقر, لم يُكتب له أن يرى النور, فظل قابعا في حجرته يراقب ويتأمل. قال:

"يا بني؛ الرجل يريد أن يشعر بعمق الاختلاف, هو بين أمثاله من الأثرياء الجدد لن يشعر بجديد.. بيننا هو طائر يحلق في السماء.."

تاهت نظرات العجوز في العدم للحظات, تلمست في أوبتها صفوف كتبه العتيقة.. أردف:

"هناك من البشر من تنبع سعادته من بؤس الآخرين.."

أثناء خروجه ذات يوم مندفعا, بعدما فرغ من لهوه بالمصعد, اصطدم بالصديق القديم على درج عمارته الفارهة.. الرجل يضاهي العقار تعاليا وغطرسة.. ابتسم له في بلاهة خجولة, فقابله بتجهم, وشذرات من شرر اتقدت به عيناه.. اقشعر بدنه الصغير, وفر وكأن شياطين الأرض تلاحقه.. في المساء تلقى البواب الجنوبي صفعة عنيفة, ووابلا من الزجر والتعنيف, وكاد يطرد.. في الأيام التالية تربص النوبي به, وعندما فتح باب المصعد للمغادرة, وجده أمامه, وقد كان يظنه في السوق يمارس طقوس عبوديته الصباحية.. صفعه البواب, وركله, وطرده شر طردة.. من بين دموعه التي انسابت, وهو متكور على الدرج الرخامي, رأى النشوة والزهو, يعصفان بالنوبي, فيما يرتفع به المصعد..

كره بوابي العمارات, وبعدما كبر وفهم حقيقة المؤامرة؛ تحولت كراهيته لصنف آخر من البشر. البلد ممتلئة بمن يستحقون الكراهية.. محدثي النعمة بلا سبب معروف, كم يتلذذ من تآمرهم على بعضهم البعض, وهو الأداة في يد من يدفع أكثر.. أبوه كان شريفا, كان فتوة, وكان رجلا.. هو الوحيد الذي وقف في وجه الرجل, عندما أراد أن يستولي على منازل فقراء الحي في الطرف المقابل لبرجه الأول؛ ليشيد مكانها برجه الثاني.. الرجل يريد أن يُحكم الخناق على العبيد ويحتجزهم في المنتصف.. هو الإحساس بالتلذذ من دونية الآخرين لا شك, كما وصفه العجوز دودة الكتب.. الرجل أصابه المال بالسعار, نفسيته تحتاج إلى طبيب نفسي, ولم يكن لفتوة بسيط كأبيه أن يتفهمها, وهو يقف خاليا عاري الصدر؛ عدى "نبوته" رفيق الدرب, أمام "الجرافة" العملاقة.. في المساء أصر الأب عليه بالمبيت عند خالته.. في الصباح

وجده ذبيحا في فراشه, وحيدا مع نبوته.. لم توجه التهمة لأحد. تسمر من كان يدافع عنهم صامتين, وهم يعلمون عن بكرة أبيهم أبعاد المؤامرة. عندما شب قليلا فهم هو الآخر. أول عملية قام بها كانت بالمجان, كانت من أجل تصفية حساباته القديمة, طلقة جاءت في المنتصف, تماما بين العينين.. النوبي نجا منه, كان الموت قد اختطفه مبكرا..

القتل الأول أصعب القتل, ولكنه يصيب بالسُعار, كما المال تماما, الباكورة الأولى لحمم بركان الغضب.. الثقب الدقيق في منتصف الجبهة لم يكن ليغيب عن ذهنه, اقتحمه مثل شمس أبدية لا تعرف الغروب, والدماء التي تدفقت, نهر بربري متوحش في فيضان مستمر.. والثقوب تتراص, وأنهار الدم تتوحد, والدائرة تتسع بلا مخرج, وجيبه الذي يكتنز بالمال في كل مرة ينفذ فيها مهمة, يسبب له سعارا إضافيا..

شيد هو الآخر برجا على أعتاب الحي, في ذات المكان الذي دافع عنه أبوه يوما. يومها كانت السماء قريبة, والشفقة في قلبه أبعد ما يكون. مكث ينظر إليهم وينظرون إليه, ولم يتجرأ أحدهم أن يقف في وجه "الجرافة" حادة الأنياب هذه المرة..

"هو الانتقام؟!.."

ربما.. كما أنه يريد أن يتشفى فيهم عن قرب؛ فهم هم من وقفوا يوم النحر, لم تنبس منهم شفة.. وشيء من بقايا ضمير ظل يؤرقه, وهو الذي كان يجهز نبوته الصغير ليقف بجوار أبيه يدافع عنهم..

وخاطر ظل يراوده, بعدما تلوثت يداه بالدم, وفي النوم يأتيه كابوس بشع؛ فينتفض فزعا, ويتمتم مثل عرافة أسطورية تستشرف الغيب, فيما يضع سبابته بمنتصف جبهته ويطلق بصوته جاف النبرات طلقة وهمية:

"من قتل يقتل ولو بعد حين.."

انتفض, جاست عيناه من خصاص النافذة؛ يستطلع حال الصيد, وجد الشرفة ما زالت خاوية.. هو على وشك الخروج, طوال أسبوع لم يحد دقيقة, دائما في تمام السابعة..

الشفق الوليد تتسع رقعته, يبشر بانبلاج الشمس, يأخذه رغما عنه, يتيه للحظات بين أروقة السماء, صفاء المشهد يزعجه؛ فليس هذا وقتا مناسبا!!.. وهل يعرف الصفاء قلبا في حالة انتقام لا نهائي؟!!..

هرب إلى ساعته. العقربان يشيران إلى تمام السابعة.

يخرج الرجل حاملا قدح القهوة الصباحي..

تبرق عينا الصياد فيه, يتلمس بندقيته, يسند كعبها إلى كتفه, يضبط المنظار على منتصف الجبهة, يهُم باعتصار الزناد.. الهدف يتحرك بلا سبب يعلمه. عدسة المنظار عالقة في فراغ الشرفة. أخيرا يجد هدفا بديلا؛ طفلا يحتل العدسة في هذا التوقيت الحرج.. عاود التصويب على الجبهة, ينكفئ الطفل على أبيه يحتضنه, ويلثم جبهته.. تماما في المنتصف..

وضع البندقية جانبا.. غامت عيناه بالدموع.. اختنق بها.. انهمرت كما سيل جارف.. أطاحت في طريقها بكل سدود المقاومة.. كان يبكي أبيه الذي لم يبكه يوما.. تمتم:

"كم أفتقدك يا أبي..".

شيء ما يجثم فوق صدره, يمسك بتلابيب الهواء أو تلابيب روحه. ثقل في الهواء يرهقه, ويجعله يلهث طلبا لذراته العاصية. يلملم أطرافه الطويلة الناحلة, فيشعر أن كل خلية في جسده تئن بصوت يكاد يسمعه. يغادر الفراش.

يفتح النافذة, فينساب ضوء القمر الفضي, ملقيا بظلال باهتة على الأشياء. لا تسعفه قدماه للعودة, فيتهالك أسفلها, ويجلس جلسته التي اشتهر بها؛ "القرفصاء".

تجوس عيناه ذات اللمعة المعبرة بين الفراغات, تتملى أشياءه العتيقة طويلا في ألفة الرفقاء. يخيل إليه أن الأشياء تنظره: دولاب عرسه العجوز المتهالك, السرير"العمدان" المتداعي الأركان, المنضدة التي نخرها السوس, "وابور الجاز"..

بريق عيونهم يلمع في الظلام. يراه. يمعن النظر. نعم يراه. لم يتملكه الجنون بعد..

يرى أشياء أخري: زوجة فتية تشعل "الوابور", وتبتسم له. ثوبها يحتك بوجهه. نعم يحتك, بينما تضع إناء الماء على الموقد. الحجرة تضج من حوله بالأشخاص: جده, أبوه, أمه, أعمامه. أصدقائه.. يرتفع حديثهم الصاخب..

جده يربت على خده كعادته, ويقبله. يشعر بدفء القبلة علي جبهته. أبوه يحمل طفلا ذو وجه مألوف على كتفيه, ويغمز له. أمه الحنون تهدهد نفس الطفل وفي عينيه وعينيها بوادر نعاس. يأنس بوجودهم, وينسى الهواء وذراته العاصية..

الطفل ذو الوجه المألوف يبحث في شغف وخوف عن قرش صاغ ضائع بين أكوام التراب, لا يجده, تنساب دموعه, تمس شغاف قلبه, تمتد يده تبحث عن قرش ليعطيه له, يكتشف أن زمن القروش قد ولى, يشيح بوجهه متألما؛ لأنه يعلم أن الطفل كان شغوفا بشراء حصان حلوى من المولد.. وفجأة أضواء تتلألأ, تخطف بصره, يضع يديه على عينيه في محاولة لخفض حدتها. ضجيجا عاليا يصم أذنيه, وأنفه يشتم

روائح الطبخ الذكية. شاب ذو وجه مألوف برفقة عروسه الحسناء في ليلة الزفاف, وسط حمى الزغاريد. تتساقط الزغاريد صرعى أمام صراخا حادا يفزعه, يعقبه بكاء ضعيفا تهتز له أرجاء الشاب المنتظر على باب الحجرة طربا. يتكرر الوقوف والبكاء في تعاقب تظهر به يد الزمن التي لا تستكين. ينفتح الباب على مصراعيه, عن الرجل وزوجته, ومن حولهم بناتا وصبيانا كثيرون..

يصل إلى مشهده طريح الفراش, بلا رفيقة فقدها منذ زمن, ومن حوله نساء ينهنهون في ضجيج يزعجه, ورجالا وشبابا يشهونه, تدمع عيونهم في صمت.

حياته! ينقصها فقط أن تتمدد الأيام في جوفها بالتفاصيل, لينتفض الماضي حيا نابضا!

الماض! ذلك الوحش الوديع الذي استطعنا ترويضه وصار مأمون الجانب, حتى وإن نال منا في وقت ما, وتحول بكامل إرادته أو إرادتنا إلى مجموعة من الأحاجي والحكايات..

يتململ في جلسته. ساقاه لم تعدا تقويان على القرفصاء طويلا. يصر عليها.

يفتقد ضجيج مؤنسيه. يلتفت بحثا عنهم. يرهف أذنيه. لا شيء, سوى صفير طويل متصل, مثل مذياع فقد الإشارة. كادت الفكرة أن تضحكه. إحساسه بأنه لا وقت لأي شيء وأد الضحكة في مهدها. وطفحت عيناه بالدموع فجأة, ربما لتأكده من إحساسه مثلما لم يتأكد من شيء من قبل.

أذناه تتسمعان وقع خطوات قادم ينتظره, يعلم أنه قادم, قد يكون في الطريق إليه, أو أقرب من ذلك, ربما هو الآن على رأسه, يستعد للمهمة الأبدية. يرتعد للخاطر بشدة, وتتسع عيناه لفضح العتمة. يتكاثف الظلام في تحدى يرهقه. تسقط نظراته صريعة العجز أمام الظلمة البهيمية. يشعر بضبابية مقيتة تمتد بطول خط الحياة الموغل في الأبدية.. تشمل ما بعد الحياة. يتملكه شعور جارف بالخوف, رائحة الخوف تزكم أنفاسه, تملأ رئتيه, يشهق خوف, يزفر خوف. رغبة عنيفة في التقهقر تجتاحه. سخرية من الخاطر تهاجمه. وعلى البعد السحيق نور باهت يومض, يقترب, يبدد

فلول الظلام, ينساب بداخله, يملأ قلبه ورئتيه. راحة تهدهده, يشهق نور, يزفر نور. خلاياه تتوهج. وقع خطوات القادم الغامض تصك أذنيه. يدقق النظر, يجده أمامه, يحتويه, يخترقه, يؤدي عمله في صمت مهيب. يغادره. سكون..

الموتى لا يبكون

مشدوها أتسمر أمام القبر, بقلب واجف ويد مرتعشة أتلمس انفراجة الباب الحديد, وقد انفلت من طوع المتراس الكبير.. أحدهما حاول فتح الباب للدخول..

"ولم الدخول؟!.."

سؤال محير, بلا إجابة..

أو أنه هو هو من حاول فتح الباب للخروج..

"وهل يملك الموتى حقا للعودة؟!.."

من يسعفني بإجابة ليطفئ النار التي اشتعلت في قلبي منذ حديث الطبيب!!..

كصاعقة هبطت علي من السماء؛ كان موته. كان حينها يتوضأ عندما اقتنصه ملك الموت.. لطمتني سقطته فهرعت, لأجد الماء يقطر من أعضائه وشهقات النزاع الأخير تشق شفتيه.. برهة من الزمن وغادر.. وتركني بمفردي أتجرع مرارة الفقد والفراق..

على المغسل انفرطت دموعه هو الآخر, وعبثا جففت الدموع التي اندلع لها بكائي والنحيب.. واعتذار قرأته على ملامحه, وصفحة وجهه, وكأنه يعتذر عن المغادرة على هذا النحو المفاجئ, وأنا الأب السبعيني, وهو ابني الوحيد..

قتلني التساؤل عن مغزى الدموع!!..

في الخميس الأول لموته, ربت الشيخ على كتفي, وقال:

"دموعه التي انفرطت على المغسل دليل رحمة.. كان طيبا.. وقد تغمده الله برحمته.."

انقبضت أسارير الطبيب الجالس مواجهتي لحديث الشيخ.. فأرهفت له أذني، والتزمني الصمت..

قال الطبيب زاعقا منفجرا, ملقيا بحمله الثقيل:

"الموتى لا يبكون.. لا يبكون.."

شدت يداه انتباهه, منذ استيقظ من نومه نشيطا وافر القوة والنشاط.. وجد نفسه يطيل النظر إليهما, وعيناه تتلصصان, رغما عنه, تفك طلاسم الشقاء, وتستقرئ غيب حياة من الجد والكفاح سطرت على الكفين الخشنتين.. ودبيب خوف قديم يعيث في نفسه جيئة وذهابا, يهاجم أبوابا مغلقة, ويفتحها عنوة على مصراعيها..

الذكريات المؤسفة تتدفق من محبسها لأناس وقفوا بجواره كتفا بكتف على ذات "المنصة" يوما ما.. لمعة العرق على جباههم العريضة, تهدج أنفاسهم الملتهبة من شدة المجهود, "وقلة" الماء تتقاذفها أيديهم, تمصها شفاههم الجافة, وتختلط أنفاسهم المتسارعة عليها؛ فتروي نار ظمأهم, كل هذا يرتسم أمام ناظريه, ويكاد يجزم أنه الآن يراهم وتلفحه أنفاسهم..

هم اليوم جلساء الأطفال في البيوت, يشربون الشاي الثقيل بيد واحدة, وفي حالات أشد أسفاً من أيدي الآخرين.. يتيهون بعيونهم في العدم.. تمصمص نسائهم الشفاه, وهن يرمقن كُمَ الجلباب الخاوي من اليد الأخرى, وهبات الهواء تتلاعب به ذات اليمين وذات اليسار..

"كيف لريفي أن يحيا بلا يدين أو حتى يد واحدة؟!."

سؤال يلح على أذهانهم مع مطلع الشمس كل صباح, فيما يتوسدون مصاطب البيت الأمامية.. لحظتها تتداعى ذكرى يوما بعينه, يندلق من الذاكرة, يتجسد كأنه البارحة.. ذكرى مؤلمة نمت كنبت شيطاني هائش, ترعرع وطغى على من حوله من زهور الفرح وأيام الهناءة والسعادة, ولم يترك أي متنفسا لسواه.. وحفرت كذلك في ذاكرته مثلهم تماما, مع أن صرخات الألم والاستغاثة, والأصابع والأشلاء التي تطايرت يومها, والدماء التي تناثرت في المكان, ولوثت وجهه وملابسه, لم تكن له..

يومها تألم لهم, وكاد يغمى عليه وهو يجمع الأصابع المبتورة والأشلاء المتناثرة من أنياب "ماكينة الدراس" في خرقة قماش؛ ليدفنها بجوار المقابر..

ويجافيه النوم ليالي عديدة, وإذا أخذته غفوة؛ استيقظ فزعا على الأنياب الحادة, تجره من يديه رغما عنه إلى بطن الماكينة الحديدية, وتمزق لحمه وتطحن عظامه, ليخرج من الناحية الأخرى كومة من اللحم المفروم لا يُعرف لها قدم من رأس, تتربع على كوم التبن الكبير, فتبدو كما وجبة شهية لوحش ما..

وكلما رآهم في ذهابه وإيابه بعد ذلك أنَ قلبه وتوجع, ومصمص شفتيه الغليظتين, وتحسس -بلا شعور- يديه وأصابعه, وتغشى نفسه حالة من الحزن, ويظهر يوم الحادثة, متدليا, متأرجحا على خط الزمن, يأبى أن ينتظم في صفوف الأيام..

ولكنه في موسم الحصاد من كل عام يكره ذكراهم, ويعمل جاهدا على أن ينسى كل ماضيه بحلاوته وحنظله, وأن يبقى أجوفا خاويا كفزاعة حقل وحيدة بائسة, بلا مشاعر وبلا عقل, تحركها الريح فتؤدي عملها في صمت, بلا استحضار لماض أو استقراء لغيب, حتى تمر الأيام, ويخرج معافى بذراعين سليمتين, وأصابع لم ينتقص منها شيء..

يلتمس متخفيا طريقا آخر غير طريق بيوتهم, حيث يبكرون بالجلوس في مثل هذه الأيام على المصاطب الطينية, ينفخون دخان السجائر "اللف", ويتابعون حلقات الدخان وتهويماتها الحائرة في الهواء, قبل أن تتبدد كسراب مراوغ يلوح ويختفي.. وأسراب الجمال تتحرك أمامهم في رتابة, عائدة بأحمال القمح من الحقول, تضرب أخفافها الكبيرة بالأرض؛ فتثير ذرات التراب وتعكر الجو, فيما تستدعي ماضيهم وتجتر أيام فحولتهم من الذاكرة.. تلوي أعناقها الطويلة, تمدها باتجاههم, تواسيهم بهمهمتها الأعجمية, فتلمع عيونهم, ويهزون رؤوسهم لها ساهمين..

وتلاحقها العيون المتقدة بالحرارة, حتى تتخفف من أحمالها في الأجران الكبيرة, حيث تقبع "مكينات الدراس" فاغرة أفواهها, وقد جليت أسنانها, وبرقت

حوافها, وزيتت تروسها, وصارت على أهبة الاستعداد لتحيل كل شيء إلى فتات وهشيم.. تستوي في ذلك حزم القمح الجافة مع أيدي الرجال المعروقة, إذا ما زلت لأقل هفوة...

"ليت من صنعها مات كمدا قبل أن يفرغ من آلته الشيطانية.."

يردد قلبه مغتاظا هذه الجملة, ولكنه أبداً لا يقدر على البوح بها.. فكيف ل"أبي الرجال", بجسده الضخم, وعضلاته الهائلة, أن تظهر على وجهه الصارم أي بادرة خوف, وهو من اشتهر بين الأكتاف العريضة والشوارب الغليظة بأنه الأمهر في العمل على الماكينة الآثمة, وأنه لا يرهبها ولا تتحرك شعرة من رأسه, وهو واقف على منصتها يقذف في جوفها المظلم المخيف حزم القمح بيد ثابتة لا تعرف الخوف..

ويكتم خوفه مرغما, ويضطرم به صدره, وتداهمه القشعريرة الباردة وتجتاحه على فترات كهبات بخار مختنق, فيرتعد جسده الضخم, وترتعش أصابعه الممتلئة الطويلة رغما عنه, ويبدو من الوهلة الأولي لأقل العيون ملاحظة أنه خائف حتى النخاع.. ولكن من يخطر بباله أن "أبا الرجال" يخاف...

ومررا يفرك كفيه في محاولة لطرد الخوف الساقط في أمعائه, ويشعره برغبة لحوحة متبلدة في الحمام, وهو يعلم في نفسه أنها محاولة للهرب..

"وكيف الهرب؟!".

"وكيف ل"أبي الرجال" أن يهرب؟!".

"ومن يطعم الصغار إذا لم يمتد ذراعاه بطولهما في جوف الفم الهادر ليطعمه؟!".

نهض حانقا.. غادر المكان..

حاول مليا أن يفكر في شيء مبهج, غير أنه في كل مرة, كان يضبط عينيه تعد أصابعه, وعقله لا يكف عن رسم لوحات مأسوية, غارقة في لون أحمر قاني..

وعندما خطى خارجا من باب حجرته المتخمة بأثاث عرسه المتهالك, تذكر دبلة زواجه الفضية, فعاد ولبسها في بنصره الأيسر..

ومسرعا خرج ليلحق بالأنفار في الجرن..

ومر اليوم, وجاء المساء, وانتهت أزمة أسنان الماكينة الحادة, فلم تستطع أن تنل يديه بسوء, طوال يوم شاق من العمل.. دبلة زواجه الفضية هي ما اقتلعت بنصره الأيسر من جذوره, عندما علقت بأحد خطاطيف "المقطورة" المحملة بأجولة القمح, فيما يقفز من فوقها بكل قوته...

الوجيه

انتفض سائق التاكسي من خلف المقود؛ ليفتح باب سيارته الأجرة للوجيه الجالس بعظمة في المقعد الخلفي.. كان حريصا أن يُوقف السيارة بالتمام أمام البوابة الحديدية للمبنى الفاره, لا تحيد سنتيمترا واحدا.. من احتكاكه اليومي بالبشر, اكتسب حدس ثاقب النظرة, يقدر أن يفرز الغث من السمين.. وهذا الراكب الصباحي, هو أكثر الذين ركبوا معه وجاهة طوال شهر..

هبط الرجل ببطء ووقار, وأرستقراطية عفى عليها الزمن. طأطأ السائق المسكين رأسه المنخفضة من حالها لجلالة الموقف. نفحه مبلغا إضافيا لزوم الوجاهة, فاندفع لسان السائق يلهج بالدعاء والشكر..

دلف من البوابة. أبهة المبنى والمكان متناغمة تماما مع أبهته وأناقته؛ الطول فارع, والجسد عملاق, والشارب الكث مع برونزية بشرته يعطي مهابة تتضافر مع كرشه الوسطي, وصلعته الموغلة في العمق.. انكب رجل الأمن على أذن رفيقه بمجرد أن لاح لهما. جعلا يرمقانه بنظرة ثعلبية. وثغرهما تتلاعب عليه ابتسامة غير مريحة. أراد أن يحدجهما بأقسى نظراته, أن يصرخ فيهما, ينهرهما, أن يقول لهما؛ هذا لا يليق, لا يصح, أنا نائب مدير شركتكم ذائعة الصيت.. ولكن شيئا ما دائما يمنعه, وبديلا عن هذا؛ تلون محياه بطيف من خجل.. وبدا أن حتى هذا لم يشفع له, فلم يكف الأمنيان عن الهمز واللمز حتى ابتلعه المبنى الفخم..

استقبله عامل المصعد بلا مبالاة, ظل جالسا في مقعده ولم ينتفض لمقدمه, تمنى أن يستشيط غضبا هذه المرة, يريد للبركان المكبوت بداخله أن ينفجر, ها هو يشعر بالغازات تتصاعد وبالحمم تستعر, بيد أنه دائما ما ينجح في كبت غضبه, أقصى ما حدث أن خرجت الكلمات مشحونة متوترة من بين أسنانه:

- افتح..

- عطلان..

أجاب العامل دونما يتحرك قيد أنملة..

يعلم يقينا في نفسه أنه لا عطل به, لا يُكثر الجدال, هو في الأساس لا يجيده.. واتجه للسلم.. واحد, اثنان, ثلاثة.. كل يوم يعد الدرج.. واحد وعشرون.. باقي الكثير على المائة, حيث مكتبه في الدور النائي, رغم كونه الرجل الثاني في الشركة.. ثلاثة وثلاثون.. حجرته الأساسية المجاورة لحجرة المدير خصصها سيادته لسكرتيرته الحسناء.. ستة وأربعون.. توقع الجميع حينها أنه قد حان وقت الانفجار.. خمسة وخمسون.. ولكنه لم يفعل.. بات أكثر ما يجيده هو السيطرة على انفعالاته, ومن ثم الصمت.. أربعة وستون.. لا وقت للذكريات, يجب أن يسرع قليلا.. سبعة وسبعون.. اليوم مختلف.. ويكفي ما أهدرته زحمة المواصلات من وقت.. واحد وثمانون.. بالتأكيد بدأ الاجتماع, والمدير ينتظره الآن وهو يستشيط غضبا.. تسعون..

رغم تهدج أنفاسه يتقافز على السلالم.. يكاد ينكفئ.. مائة.. يتهاوى على مقعده في حجرته النائية.. لا وقت.. يخرج رزمة أوراق, عمل عليها طوال أسبوع..

يحمل الشركة ببرمتها على كتفيه, هو الأكفأ, والأكبر سنا, ولكن شيئا ما يعطله, يقف في طريق مستقبله, يشعر في دخيلته أن منصب النائب هو أقصى ما يستطيع, وأنه مثواه الأخير.. يهرع حيث قاعة الاجتماعات في الدور الأول, يفصلها باب عن حجرة المدير.. يبدأ العد التنازلي.. عامة الهبوط أيسر من الصعود.. يطوي الدرج بأقصى ما يستطيع جسده الضخم.. يقف أمام باب القاعة.. يعدل من هندامه الذي بعثره المجهود.. يفتح الباب.. يلج المكان, فيجده مكتظا بموظفين الشركة عن بكرة أبيهم, ينتفض المدير العام لمرآه, يحدجه بنظره نارية تبلله, فينكمش منها مثل فأر خارج من بركة ماء.. يصيح فيه الديك الشركسي بكل قوته:"تأخرت ليه يا أفندي.."

" هل هو هروب؟.. انسحاب؟.. قوتان متضادتان أفنت كل منهما الأخرى, وتفتتا إلى شظايا كونية ابتلعها العدم.."

أجابت بحيادية عندما سألها عن صمت قلمها المقلق وطول الغياب, والحيرة التي زجته فيها:

- قلمي لم ينسب.. شيء ما يمسكه.. يكبله.. فقد الرغبة في البوح.. الصمت فقط ما أبحث.. ما يُبهج.. ما يملأ قلبي بالسكينة..

تملكته الهواجس, تلاعبت به, قال في نفسه متفكرا:

"كلمات بسيطة في ظاهرها.. عميقة في باطنها.. أهو الفراق بشكل لائق؟!.. الزهد فيه.. هو هو.. من نطق قلمها على يديه أبجديات الكلام.. أهو انفلات من محبسه؟!.. تحرر!!.. كسر لقيد جميله!!.."

احتاط, وهو يسأل بشيء من المراوغة:

- والأدب؟!.. ما يجمعنا.. ما نلتقي على مائدته الرحبة.. فنطعم بطون عقولنا.. أتعودين لصحرائك المقفرة, حيث الجوع والعطش, وأيام تنهشك كالسياط, تدمي روحك الهشة الرقيقة؟!..

همست, تتخير الكلمات, وعيناها تهربان إلى اللاشيء:

- أقرأ.. هي سلوتي في دنيا ضاعت فيها الأحلام.. وطريق يشرف على النهاية..

مزقته نغمة البؤس تعاودها, وتقذف بها إلى بحور الألم.. تلمع عيناه بخيبة.. محتدا يقول:

- كيف سقطتي مني؟!.. أجيبيني؟!.. كيف فقدتك؟!..

بعصبية, وعينين نديتين بدمع حبيس, تصرخ:

- قلت لك أقرأ..

شعرت بحدة صوتها؛ فاستكانت.. هي لا تقدر على حزنه.. أردفت:

- لا تقلق.. ما زلت أهيم في سمائك الرحبة.. ليس لي سواها..

اتسعتا فتحتا منخاره, وضيق من عينيه الواسعتين. سأل في حذر مترقب:

- تقرئين لمن ؟..

بتردد أجابت:

- لآخرين..

كاد أن ينفجر.. يصرخ.. يبكي.. حدث نفسه بصوت ممتلئ بالمرارة:

"وأنا ؟!.. أين أنا ؟!.. هل فقدتك ؟!.. هل أرهقتكِ طبيعتي العصية ؟!.."

كعادتها قرأت ما يجول بخلده, همست برقة:

- لست غاضبة منك..

جاء عليه الدور ليهمس بصوت خافت, مترجيا هذه المرة:

- فلنعد لنقطة البدء.. ونجبر ما انكسر.. بالتأكيد سأتعلم من الأخطاء..

تبسمت, فيما تحوم كفراشة, قبلما تبتعد عن قبس ضوء كاد أن يحرقها, ليقرأ على وجهها صافي النقاء ما لم تنطقه:

"لا مفر.. لا سبيل للرجوع.. حان وقت الرحيل.. لا مفر..".

"فريدة" ورحلة المساء

المغرب يؤذن.. شيء ما وكز "فريدة"؛ فانتفضت في حماسة على غير عادتها المتبلدة تلبي النداء..

هي على أعتاب الخمسين.. فارعة, عريضة الجسد, مترهلة بأرطال من الشحم.. بطنها منتفخ مثل بطون "أورطة" من النساء في شهرهن التاسع, تتقدمها تشق لها الطريق مثل مقدمة سفينة تمخر في عباب البحر.. من ضخامة البطن والصدر دائما ما ينشلح الجلباب –الذي احتارت في نظمه خياطة القرية- فيبدو شالحا من الأمام مترهلا يجرجر من الخلف..

وجه "فريدة" مستدير متورد, ساحت ملامحه فبدت أشبه ببالون منتفخ, يتدلى من أسفله كيس دهني يزيد من غرائبية المرأة, ويبعث في النفس شيئا من الرهبة, وأيضا شيئا من الضحك, فهي تبدو في مشيتها التي تدب, وهي تعكر الجو بالتراب, بوحش هبط للتو من السماء ليحيق الدمار بأهل الأرض البؤساء..

ورغما عن كل شيء, وما فعلته السمنة من تضاريس وتكورات, وما توحي به هيئتها الضخمة من عنف وقوة شكيمة؛ فهي طيبة القلب تنطفئ سريعا مثلما تشب مثل الحريق سريعا..

مفتاح شخصية "فريدة" يملكه كل من يجيد خاصية الامتصاص, أولئك الذين لا يعبئون بفورتها الأولى, ولا بهبات الريح التي تعتريها بلا سابق إنذار.. فيما بعد ستبدو نادمة مثل طفل, تسح عيناها بالدموع مثل نهر تتفجر منابعه..

طبيعة خطواتها بطيئة متأنية, بيد أنها الآن في أوج نشاطها, تشبه قاطرة عجوز تبذل قصارى جهدها لتجر زخم العربات المتهالكة, ذات الإطارات الحديدية الصدئة على قضبان أكثر صدئا..

يفسح لها أبنائها الطريق, وعلى وجوههم ارتسمت ابتسامة من يعلمون بالأمر.. في الحقيقة الجميع يعلم.. فبخلاف أنه لا سر في الريف, فإن "فريدة" مثل شمس لا تغيب في القرية الصغيرة النائية.. النساء يفسحن لها الطريق, وهي تندفع من بيتها, خوفا من هرولتها الغير منضبطة, فجميعهن يعلمن كم الأمر جد خطير.. وعلى كلٍ, هن أيضا يعلمن أنه قد آن الأوان لمن ترغب في أن تحذو حذوها.. هي منبه يقظ لهن جميعا في هذا الأمر, لا يحيد برهة من زمن.. وقد تولدت علاقات, وتوطدت صداقات بينها وبينهن, فلا شيء يؤجج حميمية العلاقة مثل الأشياء المشتركة..

أخيرا تصل بغيتها وقد تهدجت أنفاسها. صدرها يعلو ويهبط وكأن صخرة "سيزيف" أنهكتها أثناء صعود الجبل المرير, في حين أن الأمر لم يستغرق أكثر من عشر دقائق من بيتها على أطراف القرية إلى بيت "العمدة" الفخيم في المنتصف..

طرقات الباب الملهوفة المتهافتة اقتنصت الابتسامة من الوجوه المقتضبة أثناء تناول العشاء.. مسح "العمدة" شاربه من آثار حساء العدس, بعدما دلق في جوفه نصف الإناء, قبلما يشير لابنه الصغير بالفتح..

مثل زوبعة مأمونة العواقب تدحرجت "فريدة" إلى صالة البيت.. وكأن البيت بيتها.. توجهت من فورها إلى مكان بعينه, وانكبت تفترش الأرض في دائرة تقترب من المتر قطرا.. رمقت التلفاز الأحمر الصغير بنظرة وله, قبلما تمد يدها السمينة وتشعل المفتاح..

التلفاز الأحمر الصغير هو الوحيد في القرية, اشتراه العمدة من نحو عام مخترقا به عالم الأساطير إلى واقع حي يروه جميعا مرأى العين..

يوم أن لفظ العمدة قطار الثانية, ومن خلفه شيخ الخفر, يحمل التلفاز على كتفه يوم مشهود.. بدا العمدة يومها مثل بطل أسطوري خارق أتى برأس التنين..

الانشراح ملأ وجهها عندما أشرقت المذيعة الجميلة على الشاشة الصغيرة, تزف نبأ موعد المسلسل.. وكأن المذيعة الفاتنة, تعلم بوجود "فريدة" على الطرف الآخر, وبشغفها المحموم..

مع "تتر المسلسل", عقل "فريدة" يسترجع الأحداث الفائتة, ليقف عند اللحظة الشائقة التي انتهت عندها حلقة الأمس..

هي الآن مشدوهة, لا تنتمي لكوكب الأرض, عيناها مصلوبة على الشاشة (الأبيض وأسود) ذات البوصات الأربعة عشر.. لحظات وتنضم إليها عصبة من نساء القرية, وقد أتوا من كل حدب وصوب, زرافات ووحدانا..

صلصلة

حياة محمود محددة المعالم.. لا تتعدى حدود القرية.. مع اشراقة شمس الصباح يضع حقيبته "السمسونيت" على عجلته "النصر" ليبدأ رحلته اليومية.. رنين الجرس الذي يتعمد قرعه عند بيوت بعينها؛ تشرئب له رقاب "أعيان القرية" من فرجات البيوت, فيما تتحسس أيديهم الذقون الخشنة أو الشعر الطويل.. العجلة "النصر" التي اشتراها حديثا, بديلا جيدا عن الحمار "الحصاوي" اللئيم, الذي كان يعانده ويعتكف الصمت, فلا يشعر أحد بجولات محمود الصباحية, مما كان يضطره لإحداث بعض الجلبة بنفسه؛ من نحنحات وسعال وخلافه, كما أنها لا تأكل ولا تشرب ولا تمرض ولا تطالبه بشيء..

وعلى عجلته, وبحقيبته, يطوف القرية شرقا وغربا, يحلق لكل من أرسل في طلبه, أو يتعهده محمود بموعد ثابت, أو أغراه رنين الجرس بالحلاقة.. بعدها يلتزم محمود دكانه الصغير, يطلبه فيه شباب القرية, وصغار الفلاحين.. سيناريو حياتي ثابت لا يحيد قيد أنملة؛ إلا في يوم واحد.. يوم الثلاثاء من كل أسبوع, حيث سوق القرية الكبير, العامر بالخلق وخيرات الله, وفيه لا يعير محمود أحدا التفاتا حتى ينفض السوق, ويذهب عُماره إلى حال سبيلهم..

الآن كرسيه الخيزران منصوب على أعتاب السوق, منهمكا يحلق على عجل. مقصه يصلصل على أشده, وهو يكاد يلهث؛ ليلاحق التجمهر من حوله. فلاحين وباعة وخلق كثير, كل ينتظر دوره. يبدو بينهم بمقصه وحركة يديه وجسده الضئيل مثل مايسترو لجوقة موسيقية أفرادها من الضخام العتاة, ذوي الشوارب المفتولة المعقوفة كمخالب الصقر.. جميعهم يثرثر, ولا أحد يستمع كما ينبغي, ينظرون لبراعة يدي محمود وخفته, ولا يتحركون سوى للجلوس على الكرسي الخيزران كلما خلى وانتهى محمود من رأس وذقن أحدهم..

محمود ينز عرقا, ورغما عن ذلك فمه لا يهمد هو الآخر عن الكلام, فهو كثير الكلام بطبعه, يلوك الكلام مثلما تلوك النساء "اللبان".. القاصي والداني, والشاردة والواردة في القرية الممتدة يعلمها.. يصفه "عمدة القرية" بأنه وكالة أنباء متنقلة, استبدلت الميكروفون بمقص.. وعندما لا يجد محمود ما يقال, أو ينتقل من حكاية لأخرى, ترتفع عقيرته بكلمته الشهيرة:

- "وحدوه"

فتتمتم الشفاه استعدادا لفقرة محمود التالية:

- "لا اله إلا الله"

ولا يقوم الزبون من تحت يديه, إلا وقد ابتلت شحمة أذنه من رزاز فمه المنهمر كالمطر, ويشرع محمود في ضرب رقبته اللامعة من أثر الموسي بفوطته البيضاء, في شيء لا يخلو من شدة؛ ليخلصه من بقايا الشعر العالق عليها, ويدلك وجهه الممتقع الحليق بالكلونيا "الخمس خمسات" بيديه الناعمتين كأيدي النساء.. وقد صارت رقبة الزبون أكثر طولا, ويقول له محمود وهو يتلوى من حوله كأفعى ناعمة ملساء, وبلهجته التي تشبه صلصلة المقص, وغنج النساء:

- "نعيما"

فيجيب الزبون:

- "نعم الله عليك"

ثم يدس قروشه في جيب محمود, الذي يتظاهر بدوره بالتمنع, وقد صار صوته خافتا ناعما, كما صوت عذراء تُطلب للزواج:

- "وصل والله.. خلي علينا المرة دي.."

ولا يكلف نفسه قط مشقة النظر في جيبه.. وما الفائدة؟!.. والمعرفة لن تقدم ولن تؤخر, فالزبون لن يدفع أكثر مما دفع, ولو انشقت الأرض وابتلعت محمود

بفوطته, ومقصه, وكرسيه الخيزران, ولو أرغى وأزبد وملأ الدنيا بكاءً وعويلا, كما أنه في قرارة نفسه لن يخسره بأي حال..

وما أن يقوم "الزبون" ويجلس آخر, حتى يبدأ محمود في تعداد مساوئ اللاحق للحاضر, فيجعل يشب على أطراف أصابعه من فرط الانفعال, وينعقد حاجباه, وتتورد وجنتاه, ويغنج صوته ويرق, والمقص في حركته التي لا تهمد, وصلصلة صوته الصاخب, موسيقى تصويرية تصاحبه في أكاذيبه وافتراءاته على خلق الله, يجاري بحذق وبراعة الحديث اللاهث على لسان صاحبه.. وما أن ينتهي حتى ترتفع عقيرته مجددا:

- "وحدوه"..

وجع في الذاكرة

بجسده العملاق وجدته بالجوار. لم أشعر به رغم الضجيج الذي يرافقه دوما. خاملا ممتقعا على غير عادته.. المرح هو انتفاضاته من أجل الحياة, يقاوم به سوار المرض المحكم على عنقه منذ أمد.. نظرة جديدة تكسو وجهه الطيب الضخم..

جذبت نفسي لوهلة, وسألت:

"ما بك؟.."

هز رأسه ببطء وأجاب:

"أختنق.."

كنت لحظتها عاكفا على كتاب, منكبا بكل حواسي, أمتص رحيق زهور يانعات, وأمرح بين مروج وأشجار باسقات.. دائما ما يستغرقني هذا العالم الوهمي, المغاير بكل روعته ودهشته, يسلبني نفسي.. لو كنت أعلم لحظتها أن هذا لقائنا الأخير لاقتنصت روحي الهائمة من ملكوتها الأعلى..

لم تمر أيام وذهب..

صوته ينحرني كلما استحضرته ذاكرتي المتأججة بلوعة فراقه, يضج بداخلي تأنيب ضمير: ليتني سألته عما يضايقه, ليتني خففت عنه, وهو المنكوب بالمعاناة..

يباغتني خياله في كل مكان؛ خلف سياج الحديقة, عندما يضمني الطريق, وفي الحُلم.. يطل بقامته الفارهة, وصفحة وجهه كما قرص شمس, وعيناه بهما لمعة حزن شفيف..

أسأله بحرقة: لم الاختناق؟!.. ما يضايقك؟!..

شبح ابتسامته يجيب.. يدير رأسه ويرنو للأفق..

ويمكث ملتحفا بالصمت..

نظارة سوداء

بعناية واهتمام مفرط رتب صفوف الأوراق. وضعها في حقيبته الجلدية الأنيقة, قبلما يغادر مكتبه الفخم ويتجه حيث المرآة الكبيرة, القابعة بين باب الحجرة والمكتبة. صفف شعره الناعم المائل إلى الصفرة باهتمام, وعدل من وضع رابطة عنقه المنسجمة تماما مع حلته الفاخرة, والنظارة السوداء ذات الماركة الشهيرة على عينيه..

كان يبدو خليطا من الأناقة والوسامة والغموض..

وعلاوة على هذا, كان مميزا في كل شيء يقوم به, فما أن يضع أنفاسه المتوهجة المتحمسة وروحة الوثابة في أمر, حتى يتحول في شيء كالسحر إلى ألق وبريق ونجاحات متلاحقة..

وعلى هذا النحو, مر عام بالتمام, منذ تعينه مديرا عاما بالشركة ذائعة الصيت.. كل شيء على ما يرام, وكما ينبغي.. سنة بالتمام ونظرات الإعجاب تحدوه من كل حدب وصوب, بداية من أصغر العاملين وانتهاء برئيس مجلس إدارة الشركة..

ومن أجل هذا أضحى سعيدا بحق, بعد فترة عصيبة من حياته لا يريد أن يتذكرها الآن..

وها منحنى الثقة يصل إلى أقصى مداه, فيما يدلف إلى قاعة الاجتماعات الرئيسية بخطواته المتئدة الواثقة؛ لحضور الاجتماع السنوي لمجلس إدارة الشركة.. وجعل يوزع الابتسامات, ويحي كل من يقابله بإيماءة خفيفة محسوبة من رأسه, حتى وصل إلى المنصة المخصصة لإلقاء كلمته عن انجازات الشركة خلال العام المنصرم..

وفيما يرتب أوراقه, ويستبدل نظارته السوداء بأخرى طبية, كان أعضاء مجلس الإدارة يحتلون مواقعهم خلف المنصة الرئيسة, ومن أمامهم اصطف رؤساء الأقسام والعاملين بالشركة..

شعر برعشة خفيفة في حاجبه الأيسر اختفت معها ابتسامته الحيادية على الفور, وامتدت يداه في سرعة تستعيد النظارة السوداء, وتؤكد من وضعها.. وأد هاجس هاجمه في مولده, مؤكدا لنفسه أن كل شيء على ما يرام.. وبلا تباطؤ انهمك يشرح مستعينا بشاشة العرض الاليكترونية, ما لديه من تقارير, ودراسات جدوى, وجداول حسابية, ورسومات بيانية, وأشياء أخرى كثيرة هو بارع فيها أشد البراعة.

وبرغم هواجسه, والأفكار السوداء التي ناوشته في البدء, كان كل شيء عظيما.. وعلى ما يرام.. وكما ينبغي.. حتى كاد أن ينتهي..

بدأ الأمر بحالة صمت مفاجئ جاهد ليخرج منه بكل طاقته, فخرجت الكلمات مبهمة متآكلة الأحرف.. وبحركات غير واعية أخذ يصلح من وضع النظارة, حتى انفلتت من بين أصابعه المضطربة, لتظهر رعشة حاجبه الأيسر, وعينيه المتسعتين في رعب, وهو ينظر لشيء ما خفي ومخيف.. وتحولت الرعشة في حاجبه إلى انقباضات قوية شملت شق وجهه الأيسر بأكمله..

وسقط أرضا, وارتطمت رأسه بحافة المنصة في عنف, وتملكته حالة من التشنجات العنيفة, وطفق يجرش أسنانه في قوة, وزبدا كثيفا مقززا ينساب من بين شدقيه. كل هذا وسط ذهول الحاضرين الذين التفوا حوله, وقد تباينت النظرات في عيونهم بين الإشفاق والتقزز..

عندما استكان, وبدأ يستعيد وعيه, ربت على كتفه أحد العاملين في حنان, وجعل يمسح آثار الزبد من ياقة قميصه, والدماء المتجلطة على جبهته من أثر الارتطام, وهو يقول مرددا: "حمدا لله.. حمدا لله.. كل شيء علي ما يرام.."

يبدو على محياه النعيم؛ الوجه أبيض متورد بحمرة, والكرش يضغطه حافة المكتب. نهض بصعوبة. مد يد ناعمة كأنثى, متهللا بحفاوة لا يخفى علي سببها. توتر المهمة الأولى جعل الحقيبة في يدي تتأرجح كبندول ساعة.. عيناه تومضان معها في ذهاب وإياب.. جلست قبالته, واضعا الحقيبة على سطح المكتب الفخم. رغم وابل ابتساماته المصطنعة, شعرت بالهواء مشحونا بانفعاله, وبمغناطيس خفي يحركه في مدار الحقيبة. ضغط زرا وطلب قدحا من الشاي.. نظرت في الساعة, وقت العصر بات وشيكا, وأرغب في الخلاص من المهمة الثقيلة..

قلت للرئيس لحظة أن كلفني بالأمر:

"أعفني من هذه المهمة يا فندم.."

أجابني:

"أنت أكثر رجالي إخلاصا.."

قلت:

"ولكنني.."

قاطعني:

"ستكون من الآن ذراعي الأيمن.."

لحظتها ارتفع أذان الظهر, فأمني للصلاة, وقال بعدما سلم بأكثر أصواته وداعة:

"تلحق بصلاة العصر هناك بإذن الله.."

وفيما أرتشف الشاي, عكف الرجل يعد حزم النقود بعناية, ووميض عينيه صار مخيفا. ما كاد يفرغ حتى أذن العصر. قال:

"على بركة الله.. هيا إلى الصلاة.."

أمني.. ربت على كتفي وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى. قال:

"قل له اطمئن.."

أخذت الحقيبة الفارغة من نقود الرشوة, وانصرفت سريعا؛ كي ألحق بصلاة المغرب عند الرئيس..

- أبي..

فاجأه الصوت, انتزعه من شروده وحزنه, التفت ملهوفا, وجد صغيره على بُعد خطوات, هرع إليه يشق الصفوف, جثى على ركبتيه, تناول يديه الصغيرتين الممدودتين, ضغطهما بحنو بالغ, تمتم بصوت خفيض, يخشى كسر السكينة التي حلت هي الأخرى فجأة؛ فكمدت الأصوات وأوقفت الزمن..

- نعم يا حبيبي..

لمعت عينا الصبي, وهو يرنو إلى أبيه الغارق في حزنه, بعينين نديتين صافيتين, وقال:

- من يموت صغيرا لا يحاسب يا أبي..

شعر الأب بانقباضه مؤلمة في قلبه, وبعينيه تستقطر دمعا حبيسا؛ فملس على شعر صغيره الناعم, ودمدم بصوت مختنق:

- انس الموت يا بني..

ضغط الصغير يده, وقال:

- جميعنا سيموت يا أبي.. الموت حق..

صنعت الدموع التي هاجمته شيئا من الغبشة, فبات الرجل لا يكاد يرى الطريق الممتد, المحفوف بأشجار "الكافور" من الجانبين..

- أعطاك الله العمر والعافية يا بني.. أنت ما زلت صغيرا على هذا..

- وهل يفرق الموت بين صغير وكبير يا أبي؟!..

فاضت مشاعر الأب, وانفرطت دموعه تنهمر, بلا قدرة منه على التحكم, وقد أخذ ابنه في صدره, وطفق يشهق شهيقا ملتاعا..

قال الابن:

- أبي لا تبك.. أرجوك!!..

- لم أعد أقدر!!.. فاض بي الكيل!!..

- طوال حياتي لي رغبة يا أبي.. وقد يحققها الله لي..

- ما هي يا ولدي؟!..

- أن أدخل الجنة بغير حساب..

- ستدخل الجنة يا بني.. ستدخلها إن شاء الله!!..

قاطعه الصبي:

- أبي؛ أخاف إن كبرت أن أعص الله.. وقد فكرت جيدا.. الحل أن أموت صغيرا.. فالله لا يحاسب الصغار..

- وأنا يا بني.. وأمك..

- سأمد يدي إليكما يوما.. وأخذكما معي الجنة..

ارتفع نحيب الأب؛ فربت الابن على ظهره وتمتم بحنو بالغ:

- استسلم لقضاء الله يا أبي إذا جاء..

- لا تستسلم أنت يا بني.. قاوم.. قاوم من أجلي.. ومن أجل أمك.. قاوم يا بني..

- لقد انتهت الآلام يا أبي.. وأنا لم أعد أشعر بشيء.. أنا الآن في أتم حال.. صدقني.. وعما قليل سأكون هناك..

- وأنا.. وأمك؟!..

- سأنتظركما.. لا تقلقا..

سقط الأب على الطريق ينتحب؛ فتوقف حاملي النعش, ومن حوله تجمهر الناس يبكون على بكائه..

صلي ع النبي

اعتاد الناس صخب "شتا", يصبحون عليه, ويبيتون عليه, حديث ساذج بسيط, لا تستبان كلماته المضغمة, متآكلة الأحرف, هو هلوسات مرض الكهرباء الزائدة في عقله, المعروف بين أهل الحي ب"الصرع".. لم يكن "شتا" أبدا منبوذا من الناس, في المنطقة الشعبية التي ولد وتربى فيها, بسبب هلوساته, وضجيجه, وقذارة ملابسه, واللعاب المنساب من ركن شفته اليسرى..

"شتا" محبوبا, حتى بين أطفال الحي, يعطونه نصيبا من حلواهم وطعامهم بحب وبراءة..

تحول "شتا" مع الوقت؛ لمفردة صارت أساسية من مفردات الحي, مثل محل جزارة "شوشة" الضارب في عمق تاريخ الحي, وبقالة "كريم" التي عاصرت أجيال وأجيال, وعطارة "علي العطار" صاحب "الخرج" الشهير, والحمار الأعرج, وقهوة "البنا" سيئة السمعة بسبب الحشيش والبانجو, والمشروبات الروحية, وفتيات التعري على تلفازه في هُدأة الليل..

"شتا" مثل نسمة العصاري التي تهب على الحي وقت آذان الشيخ مصطفي إسماعيل في إذاعة القرآن الكريم, وماء القلل الناضحة بالماء البارد العذب أمام المحلات, والبيوت العتيقة ذات المشربيات.. إن غاب تساءل الناس بعفوية وصدق, وإن ظهر طيفه السامق, يدب من بعيد؛ تهللت الوجوه, وإلتمعت العيون, واتسعت الشفاه بابتسامة حنون, فما ينقصهم جاء وحضر, وكانت الجملة الوحيدة الواضحة من كل هذا الزخم الصاخب المنهمر من فمه, مع الخيط الرفيع الذي لا ينقطع من اللعاب, هي جملة: "صلي ع النبي", فتتمتم الشفاه بالصلاة والسلام, والدعاء ل"شتا" بالشفاء..

***

خرج "حسام" من بيته يعلوه الفكر, اليوم بداية امتحانات الثانوية العامة, لأول مرة يشعر بهذه الوحشة, هذا الحزن, هذه الوحدة, حقا هو شعر بكل هذا منذ شهور, يوم توفى الله أمه, لتتركه وحيدا مع أبيه, في شقتهما الصغيرة بالحي الشعبي, غير أنه اليوم يستشعر هذه المشاعر عنيفة متأججة, وكأن المآزق هي ما تنبش في عمق الألم, فتشعرنا بعظم كوارثنا, كم هو في أمس الحاجة اليوم للدعاء, من قلب طاهر كقلب أمه, أمه التي كانت تمطره بوابل لا ينقطع حتى إعلان النتيجة, اليوم هو بمفرده في الحياة, بطوله, وكأنه مقطوع من شجرة..

أبوه الغارق في شهر العسل مع الدمية الحمراء التي تزوجها لا يعول عليه كثيرا.. أبوه أصابه رهاب الموت, لمَا اقتنص أمه بلا إنذار, فتزوج فتاة تزيد عن عمر وحيده بعامين اثنين, يستتر في شبابها لعل الموت لا يراه..

الجملة الوحيدة الواضحة من حديث "شتا", أنبتت فكرة في رأس "حسام", وبخطه الجميل, وعلى ورقه بيضاء, ومع بعض التعديل, كتب:

"هل صليت على النبي اليوم؟!.."

وبكل النقود التي معه, نسخ من الورقة عشرات النسخ, وجعل يوزعها على راكبي السيارات, ويلصقها على واجهات المحلات أثناء طريقه للجنة..

أراد "حسام" أن يدعو له الجميع, لعل قلبا صادقا طاهرا كقلب أمه يصيبه بدعوة, تكون على قلبه بردا وسلاما..

"مختار", ومنذ الصباح, وحاله حال, فالتاكسي ليس على ما يرام, بين ساعة وأخرى عطب جديد, ما ارتكبه من ذنوب ليلة البارحة يصيب التاكسي اليوم بالكبوات, لقد تمادى مع "فتحية" في القبلات المختلسة من وراء ظهر الأب الطاعن في السن, ضعيف النظر, حقا هي خطيبته, وزوجته عما قريب, ولكنه لم يعقد عليها بعد, والبنت تحبه وتخاف ألا تطاوعه؛ فيتركها, فهي تعلم أنه "بغزالة", كما أن جميع من يعرف "مختار" يعلم عنه ذلك, ولكنها تحبه كما هو, بكل طيشه وجنونه و"قلة أدبه", وقد عاهدت نفسها, وعقدت العزم خالصة مخلصة, أنها بعد الزواج ستدعو الله

طويلا بالمغفرة على كل ما فات, وما أذنبت, وما قدمت وأخرت, وأنها ستعمل جاهدة أن تغير من حال "مختار", وتقيم المعوج فيه..

"ليلة أمس أعطاه الواد "بذرة" سجارتين لف؛ واحدة بانجو, والثانية حشيش, هما السبب في توهان عقله مع البت "فتحية", وعامة هو يحمد الله أن الأمر لم يتجاوز حد القبلات..", ما فات فات, هو الآن يريد أن يكفر عن معاصيه, يريد شيئا سريعا يعجل بانتهاء مأزقه مع هذا التاكسي اللعين, المرتبطة حالته الصحية بموقف "مختار" مع الله, فلا يعود آخر اليوم خالي الوفاض, وهو في أمس الحاجة للنقود, من أجل الفرح الذي بات على الأعتاب..

مد "حسام" يده بالملصق, فأخذه "مختار" بلا وعي, ووضعه على الزجاج الأمامي للتاكسي, ثم خطر له, أن يطبع منه نسخ بعدد القبلات المختلسة, تاه في العدد, فطبع مائة نسخة, لم تكلفه سوى خمس جنيهات, وطوال يومه, ويده ممتدة من نافذة التاكسي, توزع النسخ على زملاء المهنة..

***

صاحب ماكينة التصوير, الذي نسخ عنده "مختار" الملصق, احتفظ بنسخة لنفسه, وقرر من باب كسب الحسنات أن يعطي لكل زبون نسخة مجانية من الملصق.. لم ينتبه عم "جرجس" صاحب ماكينة التصوير, أن النبي المقصود هو النبي محمد, وليس عيسى.. وعندما نبهه "جورج" الساعاتي, قال "جرجس" ببساطة:

- محمد نبي.. وعيسى نبي.. تكون الصلاة عليهما معا..

لكزه جورج مؤنبا:

- انتى أكيد كبرت وخرفت.. لو محمد نبي, نكون احنا على ضلال..

قال جرجس مازحا:

- خلاص..كل واحد يصلي على النبي بتاعه.. الورقة لم تخصص حد..

***

.....

.....

***

جاء في نشرة التاسعة مساءً, أن ثمة ملصق يحرض على الفتنة الطائفية, انتشر في ربوع المعمورة, في سويعات معدودة, وأن السلطات تناشد المواطنين بضبط النفس, والتمسك بروح الوحدة الوطنية, وعدم الانسياق وراء فتن التحريض..

انتفض حشد الرجال لمرأى قافلة سيارات النقل الكبيرة تتهادى على الطريق الموازي لقناة السويس في البر الغربي, وصناديقها الخشبية تترنح يمنة ويسرة. كان أول ما وصلهم منها هو الأزيز والصرير, وقد دقا في رؤوسهم كأجراس مبهجة يوم عيد؛ فانتفضوا واشرأبت أعناقهم الغليظة تحملق فيها, وتتحد عليها, فيما تشنجت أيديهم على الفئوس والمقاطف وأدوات شتى, وفي نفس كل منهم تلاعبت زبالة ترقب وقلق, وتوجس من خيبة لن يحتملوها..

ومجاورا لسائق سيارة المقدمة, جلس الرجل ذو الندبة, وعبثا حاولت العيون المبحلقة استشراف المخبوء من وجهه المطبوع دوما بالصمت..

وكان العجوز المنتصب الآن, المشرئب بكل قامته- أكثرهم اختلافا.. ربما العجوز تجسيد حي لغد مخيف قد ينتظر كل واحد منهم, وقت أن تخبو الصحة وتتملص العافية, وتظل الأفواه العالقة في الرقاب مفتوحة تحتاج لمن يطعمها؛ ولهذا كانوا يشفقون عليه, في حين أنهم في حقيقة الأمر يشفقون على أنفسهم..

الرجل ذو الندبة يُكبره ويُجله, وكلاهما عمره قد جاوز الستين.. علاقة ما تجمع العجوز بذي الندبة, حب ما..

الرجل ذو الندبة, لم يأت بسياراته منذ أسبوع بالتمام؛ لتمر الأيام عليهم معسرة دون الكفاف.. يتجمعون عقب الفجر, ويغادرون مع الغروب, تظللهم سماء مكفهرة بشظف العيش؛ بطونهم خاوية, ونفوسهم تحوم بها غربان الهم..

"طوبى لمن يأكل لقمته بساعده وعرق جبينه يوما بيوم.."

جملة العجوز الشهيرة, يحمسهم بها, ويستفز طاقتهم كلما استبد بهم الوهن..

قال العجوز لذي الندبة في المرة الأخيرة, وبعينيه يلمع وجع:

"ضاق العيش.."

وسبحت عيناه مع تموجات القناة حيث سيناء, تخنقها كثبان الرمال في البر الشرقي تنادي للغوث, وهزه في كتفه, وعوى:

"ألا تذكر؟!.."

غامت عينا ذو الندبة, تنبش الماضي..

"كانوا بالكاد عبروا القناة.. أزيز رصاصات العدو في كل مكان.. صخب طائراته.. فرقعات دانات مدافعه.. الدماء الطاهرة تروي الرمال.. الأنفاس.. العرق.. السواعد الفتية.."

وعوى العجوز ثانية, وفي عينيه تربعت خيبة:

"لم كان العرق؟!.. الدماء.. الحرب التي خضنا؟!.."

انتكس رأس ذو الندبة في الأرض, وقال العجوز فيما يشير لرأسه المشيب:

"شارفنا النهاية, وما زالت الغادة تنتظر.."

"أحدهم يصوب على الجبهة (الخالية حينها من الندبة)؛ لأن بيده كان العلم يرفرف بفرح.. لم يكن يدري.. ولم يكن يعبأ.. كان مزهوا برجاله؛ قائد الكتيبة.. وها النصر يكلل أعالي الجبال, نداهة تنادي, تفتح يديها على مرمى البصر.."

هدر العجوز:

"وكما عبرنا بالسلاح.. نعبر اليوم بالفأس.. ننتشر.. نُعمر تلك البقاع المهجورة.. نحررها من كثبان الرمال الجاثمة على صدرها كما اليهود.. ومن الأفاعي التي تسكن المخابئ والجحور.. نمد البلاد التي ضاقت بنا بأرض جديدة, غير تلك التي هتكتها الخرسانة, وبورها الجشع.."

نكت ذو الندبة الأرض, وتصلبت عيناه إلى حيث كان النصر منتظرا يوما..

"وفي اللحظة الأخيرة يدفعه جندي, أسمر شداد.. لينجو قائد الكتيبة بندبة, جاءت بجوار حاجبه الأيسر.."

السيارات الآن ترج الطريق.. سيعبر بالرجال من أجل نصر جديد.. يراه مجددا على قمم الجبال, يعانق السماء, ينتظر من يقطفه, يهديه جلبابا من السندس الأخضر لسيناء, مصانع وشركات.. يريد أن يزف للعجوز الخبر.. لجندي كتيبته.. العجوز أنقذه مرتين؛ يوم الندبة.. وهذه المرة؛ ليتحول من مجرد مقاول ثري, يخرق الأرض الزراعية بالخرسانة المسلحة, إلى باحث عن النصر..

اجترار

بيت "العجوز" قبالة المسجد, دائما ما كانت تجلس تتابع الغادي والرائح.. وجهها صبوح, يفتر ثغرها عن ابتسامة عذبه, تناغي حصى الأرض, تشيعهم بفيض من الدعاوي حتى يبتلعهم البعيد..

أخي باسق ممتد, يدب على الأرض, فيبدو كما نخلة هائلة تركت أرضها وتبحث عن أرض جديدة, وعندما يرتدي جلبابه الصيفي الفضفاض, ويتسلل إليه الهواء وينفخه, يبدو كخيمة تتحرك الهوينى, أو كشبح أسطوري يبحث عن قاتله.. هو يشبهني في الملامح كثيرا رغم تباين القامة, وفارق العمر الذي يقترب من العشر سنين..

عندما أخبرت أمي أن "العجوز" المواجهة للمسجد يلتبس عليها فتحسبه أنا؛ ترقرقت عيناها بالدموع من البهجة, وهي تتخيل المشهد, فالمرأة طاعنة في السن, كليلة البصر, مات عنها زوجها, فجلست تعد الأيام, تنتظر اللحاق به..

قال أخي؛ "طلبت مني أن أقرأ عداد الكهرباء, وأن أقارن القراءة بإيصال الشركة", لم يكن أخي الفارع, بحاجة لكرسي, للوصول للعداد المنزوي في بئر السلم, وربما لهذا السبب طلبت منه "العجوز" أن يفعل, تحسبه أنا "المهندس"..

أجابها أخي, وهو يفرك كفيه محرجا, دونما يُقدم على مجرد المحاولة: "الأمر يحتاج لمختص.."

ضحكت أمي كثيرا كلما تذكرت الواقعة.. هي تخبُر طيبة ابنها, وكأنه في الحياة ضيف شرف, لن يلبث ويغادر.. لم يُكذب أخي الخبر, مات من بعدها بقليل, ذلك الموت "المودرن" المسمى بالفجأة, دونما يُعرف له سبب, هو فقط قضاء الله..

جلست أمي يوما قبالتي, تجتر ذكريات أخي؛ كيف ولدته يوم سوق, وقد أتاها الوجع فيما تشاكسها بائعة الخضار, فانطلقت لتلد كأهون ما يكون, ثم كيف أصابه

مرض "الصرع" وهو ابن العاشرة, وكأن الحياة ضنت عليها فرحتها, ثم الموت يُكمل المأساة ويأخذه إلى غير عودة..

ظلت أمي تحكي عنه, وكأنه حاضر بيننا ما ذهب, تترك مقعده خاليا على السفرة, بجوارها, في المسافة الفاصلة بيني وبينها.. ترى طيفه أينما حلت, وأحيانا تحادثه, وعيناها تلمع بطريقة غريبة, وكثيرا ما سمعتها تخبره؛ أنها لاحقة به عما قريب, فلا يخاف ولا يقلق..

يقينها بفكرة وجوده, جعلني أنا الآخر أراه؛ وهو يرمقنا من خلف سياج الحديقة, وهو يضحك تلك الضحكة الطفولية الجامحة المجلجلة..

شجعني الانشراح البادي عليها ذات مساء, أن أحكي لها عن واقعة, كنت قد نسيتها في خضم الأحداث؛ كنت أسير معه ذات عصر, ومررنا من أمام المسجد, اشرأب عنق العجوز لتتحقق أن ما تراه حق ليس بخيال, العجوز بالفعل لم تكن تعلم بوجود شبيه لي, وهالها أن ترانا سويا, ولكنها ابتسمت بعد حين, بعدما تفهمت الأمر..

حققت أمي وعدها, ولحقت به بنحو عام..

العجوز رحلت اليوم..

الهزيل

الأنين مكتوم, والأمل ملبد بغيوم..

يجر ساقيه الهزيلتين على الطريق الإسفلتي, ومحطة القطار قابعة مستفزة عند الطرف الآخر.. في دخيلته, ارتسمت صورة مقيتة لهذا الطريق؛ يراه حية شريرة, تتلوى, تتمطى, تبدو بلا نهاية, ليصل في النهاية ممتقع الوجه متهالك القوى, يئن أنينا خافتا, يجاهد أن يخنقه؛ فلا يصل لأذان من غصبتهم الظروف؛ ليستقلوا قطار السادسة..

والشمس -في أقصى الشرق- أنثى تتدلل, تناوش الدنيا من خلف غيمات شتوية, تطل وتتوارى. والصباح الوليد يستجدي الصبر, يجاهد لينسلخ من مشيمة ليلة معتمة, يتصيد بواكير الأشعة, يغزلها ابتسامة دافئة تزين محياه الواهن المرتعد من لفحات البرد..

يسعل, فيأتي سعاله حادا, يهتك السكينة, ويشرخ قدسية لطالما استشعرها في صباحات قريته. تشرئب أعناق الكلاب الملتفة حول نفسها, المضجعة أمام البيوت اللبنية المتهالكة المتناثرة علي حواف الطريق. يقف ريثما تخف النوبة, وينقشع احتقان وجهه, وتستكين عروق رقبته المثارة خلف جلده الرقيق.. يجرب نفسه مجددا في التقاط الأنفاس ملتمسا الحذر. يتذكر صباه حينما كان الجسد فتيا لا يعبأ بشيء, حينها كان يلتقط النسمات البكر من أكمامها.. الآن النسمات سياط تنهشه, تمزق أنسجته وخلاياه, تستفز نوبات السعال؛ فتشعره بالنزف يقطر داخله, وبالتصدع ينتشر بأركانه..

يرمق الطريق الممتد, بنظرة مسافر أعياه الترحال؛ فيئن من ألم يدق في عظامه, على أشده أسفل الظهر.. يعاود الجر. ما زال في الأربعين وجسده مستنقع

أمراض. لديه إحساس -لا يفارقه لحظة- أنه على وشك المغادرة. مسألة وقت.. زوجته لديها نفس الإحساس..

قالت بينما يستعد للرحيل:

"الجو شديد البرودة.. والنوبة تداهمك طوال الليل.."

صمتت..

يعلم ما يعتريها من وجل..

يهرب من سهام الشفقة المنهمرة من عينيها المكتحلتين إلى سكينة طفليه اللذين يغطان في النوم.

"يجب أن أعمل.."

تمتم بلا صوت..

طاقة ما تعاود الشحن, يستشعر دبيب تدفقها في الأوردة والشرايين, وموجة من التحدي تتولد, تبرق بها عيناه. يلثمهما ويغادر..

يصل المحطة بعد عناء, يتهالك على أول مقعد يقابله, خلاياه المكدودة المتصلبة تتهاوى وترتخي, يعتريه ذلك الارتياح الذي يعقب الفشل, من محاولة مضنية استنزفت الروح والجسد, ولهذا كان جسده الضئيل الهزيل ممتنا للمقعد كصديق رحيم مد يد المساعدة.

تندلع في المكان صيحات طيور تغادر أعشاشها, تزعق معترضة, ملت ليل لا يريد أن ينقشع ويذهب إلى حال سبيله, تشهد الأبدية على ما تكابده من شمس الشتاء النزقة المراوغة.. يصم أذنيه.. يكتفي بما به من ضجيج وصراخ..

ينظر شمالا حيث يأتي القطار, فيرتد بصره خائبا؛ فالضباب والظلمة اللذين تكاثفا في تحد مرهق يحجبان معالم الرؤية. ولا أحد على الرصيف سواه, فنادر ما يجد رفيق في هذا الوقت المبكر, أما الرصيف المقابل فتفترش أرضيته امرأة تتشح

السواد ممن يتاجرون في الجبن والسمن, تبدو من أغراضها أنها في الطريق لسوق البلدة المجاورة؛ لبيع ما يمتلئ به الإناء المتخم من أشياء.. لم يكن جديدا أن يتأخر القطاران عن الموعد؛ قطار الشمال وقطار الجنوب, وسرعان ما استسلم لإغفاءة فرضها الجسد المنهك..

ينتبه من غفوته.. يجد المرأة تتدلى من الرصيف المرتفع بجسدها المكتنز إلى الأرض؛ لتحضر "حواية قش" أسقطها الهواء بين القضبان.

تلتقط أذناه الرهيفتان صوت القطار القادم, يحذر المرأة منزعجا..

ترهف المرأة السمع؛ فيهاجمها الضجيج المتزايد, ويخترقها هلع وخوف يهتكان رباطة الجأش ويشدان أوتار الأعصاب. مرتعبة تحاول الصعود للرصيف. يخفق ذراعاها المضطربان بفجائية الموقف في رفع الجسد الممتلئ. يخفق قلبه للمحاولة الفاشلة ويستشعر عقله -المنتفض من سبات لحظات الوهن- خطورة الموقف.

المرأة حبيسة الرصيفين الممتدين, ولا يدري أي القطارين في الطريق.. يدقق النظر في كلا الاتجاهين لسبر أغوار الغلالة الضبابية, يرتد بصره مجددا خائبا وهو حسير..

يستجمع قوته, يمد يديه, تتشبث بهما كفيها المكتنزتين.. تتصلب عضلاته الضامرة, تتنافر عروق رقبته من مخابئها, يشعر بثقل الجسد يخلخل فيه ترابط بنيته, وبروحه تكاد تفر من وطأة المكابدة, ولا يتحرك الجسد الضخم قيد أنملة.. وأخيرا يفشل.. يتراخى جسده في أنين موجع هذه المرة, وتداهمه نوبة السعال في غير وقتها..

يقترب الضجيج, فيبدو وكأن القطار على بعد أمتار.. تقف المرأة حيرى.. يصفر القطار.. يلعن صدى الصوت في قرارة نفسه, لما يحدثه من التباس بين الأصل والزيف.. يمد يديه مجددا.. تتصلب عضلاته.. تتنافر عروقه.. يفشل.. يشعر بالضآلة.. بالتقزم.. ويعلو الهدير.. فجأة تداهمه فكرة أن كلا القطارين في الطريق, وأن انتهاء أجل المرأة لا ريب فيه..

المرارة تملأ حلقه, يبصقها, يبتلعها, ما زالت باقية في إلحاح يستفزه ويرهقه.. لا يحتمل ذنب فشلة, ولا ما ينغص عليه حياته, لديه فائض كافي من الإحساس بالذنب, ولا يريد المزيد..

يمد يده.. يتصلب.. يفشل..

فزعة تنظر إليه كخيط واهي للنجاة ليس أمامها غيره..

يهتف بها: اجري..

يخطر في باله أنها لو جرت, لربما نجت من حصار الرصيفين, وتصل إلى بر الأمان, بيد أن المرأة لم تستجب, فقط الضجيج المتنامي هيمن على كل شيء.. ويظهر القطاران قادمان من كلا الاتجاهين في ذات الوقت.. لا يحتمل.. يسقط..

يسترد وعيه, يجد المرأة على رأسه تجفف عرقه المتصبب, ومن حوله جموع الناس.. يظن أنها الآخرة, وأن صرعى القطارات يبغون القصاص منه لضعفه وهزاله.. تداهمه نوبة السعال.. يمد يده في تلقائية بحثا عن الحبات المهدئة.. يبتلع إحداها.. المرارة التي تركتها في حلقه نبأته أنه ما زال على قيد الحياة..

ينظر متسائلا.. تجيب المرأة:

"التزمت المنتصف, فلم يمسني أي من القطارين بسوء.. ما زال في العمر بقية.."

يعاود جر قدميه في اتجاه قريته, ابتسامة عذبة تلون محياه, وأمل يشرق في نفسه, كما أشرقت أخيرا شمس الشتاء المتباطئة, ولونت محيا السماء بالنور والدفء..

فهرس الموضوعات

الأرنب يُدلي بشهادته 3
بائع الأحلام 8
قناص القلوب 14
بائع اللبن لن يجيء 17
القناص 19
القرفصاء الأخير 24
الموتى لا يبكون 27
أيام الحصاد 29
الوجيه 33
بداية ونهاية 35
"فريدة" ورحلة المساء 37
صلصلة 40
وجع في الذاكرة 43
الصلاة 46
وحشة 48
صلي ع النبي 51
الترحيلة 55
اجترار 58
الهزيل 60